

ROGER CAILLOIS
THEORICIEN D'UN CLASSICISME NEUF
ETIEMBLE

روجيه كايوا يضع نظرية مذهب كلاسيكي جديد

كان هذا الكاتب نصيراً قديماً من أنصار مذهب السريالزم ، ثم فارق بريتون زعيم هذا المذهب بعد أن جهز قضية العقل في الفن ، وكان عضواً بمدرسة باريس لعلم الاجتماع (مع جورج بتاي ، المدير الحالي لمجلة « كريتيك » وميشيل ليريس مؤلف كتابي « أفريقيا الشبح » و « عصر الانسان » وغيرهما ...) قد قن هذا الكاتب وقتاً ما بنزعات الفوضى والطغيان . كان العصري يقتضي ذلك . وما يزال بين الناس من يتهمة بأنه شديد الميل إلى هؤلاء الأقوياء الذين تجمعهم وإياه وحدة الآراء ، وأنه ينظر إلى الجماعات السرية وأعمالها في كثير من التسامح والعطف . ولو قد خير بين الفوضى والطغيان ، لكان من الجائز أن يختار كايوا الأمر الثاني مستجيباً للأخلاق وعلم الاجتماع . ولكن كايوا لا يريد أن يتورط في هذا الاختيار ؛ فحرصه على الدقة لا يعدله إلا حبه للحرية . ومن مفارقات الحرية أن نعمتها القيمة لا تنال إلا بمزوجة بالضغط ومخالفة له . ولا سبيل إلى ضمان نصيب قيم من الحرية الكريمة إلا إذا ضحينا منها بهذا الجزء اليسير الذي يوشك أن يكون اختلاطاً واضطراباً . « فهذه التضحية تثبتها وترفع قدرها ، على حين يهدمها الضغط الخارجي ويغص من قدرها الاسراف في الميل إلى السهولة . » يظهر من هذا النص وعشيرة من أمثاله أن سوء النية وحده هو الذي يستطيع أن يتهم كايوا بحب الطغيان . ومن الحق أن عصرنا يمتاز بسياسة عامة تقوم على الإهمال والتراخي وترك الأشياء تمضي كما تشاء ، يتعرض فيه كل من يحاول أن يكون ذا ضمير وذا خلق وذا إرادة للاتهام والريبة أكثر مما يتعرض للاحترام ، واللبغض أكثر مما يتعرض لعرفان الجميل . فالكسالى والجنباء يبغضون كايوا لأنه يعرض عليهم صورة سيفسوس وهو يدفع صخرته أمامه . فمنذ عاد من الأرجنتين حيث كان يدير أثناء الحرب « الآداب الفرنسية » ، نشر كايوا طائفة من الكتب : « تصانف الأقوياء » و « أكاذيب الشعر »

و«مناسبات» و«صخرة سيسفوس»، وكلها كتب رائعة اللغة، يقول فيها جايتون ليكون: إنها تدل على امتلاك للفن لا يطمع فيه الآن إلا أمثال أندريه جيد وجان بولون. وقد أضاف إلى آثاره هذه أخيراً كتاباً جميلاً وهو «لغة الجمال»: «قرأت نقد الكتب التي كانت تظهر، أو ناقشت في قيمتها الهواة الذين أقدر أحكامهم، فلاحظت أنني كثيراً ما كنت أوافق على الصفات التي كانوا يختصونها بها؛ ولكنني كنت أخالف غالباً في القيم التي تضاف إلى هذه الصفات. فإذا وصف أثر بأنه صادق أو طريف، كنت أوافق على هذا الوصف، وكان النقاد يرون هذا مدحاً على حين كنت أراه أنا عيباً. وكذلك لم أثبت أن لاحظت أن لي آراء تناقض أشد المناقضة ما شاع الاتفاق عليه حين يذكر الفن للفن، والأدب المذهب، والنقواعد، والصورة والمادة، والتحديد، واستعمال الصور في الشعر، وقيمة ما لا سبيل إلى وصفه، وتصور التاريخ الأدبي.»

وفي إطار من نوعين من التأمل في الطبيعة وفي الفن عرض كايوا لغة للجمال حلل فيها القاعدة والحرية، والنظام والصدق، والفن للفن والأخلاق، تحليلاً يقوم به عقل من أعظم العقول صفاء في هذه الأيام. فالطبيعة عدو للعادل والأسلوب. ولا يستطيع أحد أن يجادل في هذا الغرض الذي هو أساس من أسس الحضارة. وكايوا يعرف ذلك كأحسن ما تكون المعرفة؛ لأنه فكر فيه على ساحل باتاجونيا: «إن الإنسان الذي يأخذ أثناء الحياة بحظه من غفلة الحيوان، ويعجز عن أن يفكر في الأشياء وقتاً أطول مما تسمح له به الأقدار ليكسب قوته، مضطر إلى أن يعود إلى الطبيعة في غير مشقة ولا مهل، ويصبح نهياً مقسماً بين الشمس والموج. وهيكلة المهمل في غير عناية والذي لا يلقي من الرعاية أكثر مما يلقي الحيوان، يذبل كما يذبل الحيوان ويفنى في نفس السرعة التي تفنى فيها هذه الأحياء التي تشاركنا في الحياة والتي تستأنف حياتها في غير انقطاع وهي لم تحتفل بموتها.

«إن الإنسان حين يحتفر قبراً لجثته يضع الأساس لطمعه في المستقبل... وبثبت كذلك أنه يعرف كيف يذكر وكيف يعد. ينشئ استمراراً. ومن حيث إنه يضيف جهوده إلى جهود معاصريه، فهو يوحد على غير شعور منه بين هؤلاء المعاصرين وبين جماعات كبيرة مضت وجماعات كثيرة أخرى لا تزال في ضمير الغيب. وهو بذلك يشارك في إقامة بناء خفي لا يعرف رسمه ولا أبعاده...»

وكذلك يضع الخزاف والشاعر شيئاً فشيئاً قواعد فنيهما . . . وعلى هذا النحو تظهر الحضارة . »

وقد استطاع الانسان وحده أن يفرض الأسلوب والعدل . ولو قد أعرض عنهما لكان لنفسه منكرًا . وكل واحد منا مدين لنفسه (وللذين سبقوه والذين سيلحقونه من أمثاله) بأن يدفع أمامه صخرته المشبهة بصخرة سيفسوس ، وبأن يضيف إلى الكنز المشترك « بفضل ما يبذل من جهد وما يتاح له من توفيق ، نصيباً ضئيلاً ليدخر فيه » . وبدلاً من هذه الآثار المحكية للطبيعة التي تموت ونحيا « في شئ من الاختلاط البشع الذي لا يعرف نظاماً ولا غاية ، هذه الآثار التي تقلدها الرومانتيكية اللاواقعية والتي يحاول الاختلاط تنظيمها ، ينشئ الفن آثاراً تأتيها قيمتها مما تهدف إليه من غاية وما تعتمد عليه من نظام . » وفي أعماق هذا العالم البشع الذي يأتلف من اللحم والمهل والصيد ، وفي أثناء هذا التعفن الكدر المنتشر ، يجري دم حار يبعث الحياة في قوة إلهية نشيطة ، طامحة إلى ما هو فوق الفناء متعجلة براءتها من كل ما هو بشع قبيح « ومن كل ما هو مشترك بينها وبين القوى الطبيعية .

فكايوا لا ينكر إذن حفظنا من هذه المادة الطبيعية التي تنجح إلى الفوضى ، وهو يعلم أن لا سبيل إلى البناء المتين إلا على الطين ، وأن مدينة مكسيكو التي تقوم على مستنقع تستطيع من أجل هذا أن تثبت للزلازل . ومع ذلك ألم يكن بد من تجفيف الوحل وإقامة البناء ؟ ومن هنا يريد فرويد أن الآيات التي ينتجها العقل لا تسمو إلا إلى أن ترتفع بمحاجاتنا العضوية . ومع ذلك فقد يجب أن ترتفع بها ، أي أن تفرض على هذه الشهوات وعلى هذه القوى الغامضة « مقاومة وحاجز » ، وأن ترسم لها « قواعد دقيقة » ، وتستكشف لها « قيوداً محددة » ، فتدلل بذلك إسرارها في الاضطراب « حتى يصبح الجموح نظاماً ومعرفة . » هنالك يكون الوعي والحرية ما يسمى أسلوباً يختص بمزية توشك أن تكون مكافئة له ، وخلصتها قدرته على أن ينتج آثاراً « لا يمكن أن تختلط ولا أن تشوه » كما تختلط وتشوه الآثار التي تفرزها الطبيعة في غير وعي ولا شعور .

حرية ، ولكننا قد قلنا إن الحرية يجب أن تفهم على وجهها ، وهي التي نعرف كيف تخلق لنفسها « قيوداً جديدة » ؛ فان « في النص الذي يلاحظه الكاتب ملاحظة دقيقة شاملة ، ويخضع كل لفظ من ألفاظه للنقد والتدقيق ، حرية

أكثر مما في النص الذي يفلت من الكاتب إفلاتا . ومن هنا كان أشد أنصار
 الفوضى اندفاعاً إلى الفوضى سراعاً إلى نسيان مذهبهم كله حين يقبلون على الأثر
 الفنى . وانظر إلى فكتور هوجو الذى هو ، إذا صدقناه ، قلنسوة حمراء وضعت
 على معجم قديم . كأنه لم يتخير الألفاظ فى شعره تخيراً دقيقاً فيؤثر منها النقى
 الممتاز ويهجر الشائع المتبدل . وزعيم السريالزم ، ذلك الذى كان يريد أن يقلب
 كل شئ رأساً على عقب ، تستطيع أن تهمل قليلاً من شعره — وهو أقله حظاً من
 الجودة — فسترى بعد ذلك أن كتب أندريه بروتون ، ولا سيما « الحب المجنون » ،
 تمثل الآن . أجمل النثر الفرنسى ، نثر بوسويه ، والرائع من نثر شاتوبريان .
 ولم يزد كايوا فى حقيقة الأمر على أن قال جهرة ما يقوله كثير من الآثار التى
 تنكر مذاعب أصحابها ، وهو أن قواعد الشعر لها أسبابها وقيمتها ، وأن الشعر
 المطلق لا يوجد إلا بالقياس إلى الشعر المقيد ، وأن نظام المأساة لا ينبغى أن
 يتأثر بما يغض من قدر السياسيين الذين يحرصون على أن يحتفظوا بما يلائم
 أهواءهم من الاضطراب ، وأن الحرص على الطرافة مهما يكن ثمنها يدل على
 شئ من الهمجية ، و« أن المهم ليس هو أن تبتدىء جديداً ، وإنما هو أن تتقن
 ما تحدث من الآثار » ، وأن الشعر ، كما كان يقول مالرميه ، يألف من الألفاظ
 لا مما لاسبيل إلى التعبير عنه ، وأنه لا يكفى لجمال الصورة أن تكون مفاجئة ،
 وأن الخير فى ذلك أن يلائم الكاتب بين البدهة والفجاءة ، وأن الفن للفن
 وهو نوع من هو الفنانين « لا يستطيع أن يرضى إلا هذه الجماعة الضئيلة التى
 تقرأها غاية الغايات » ، وأن الفن خليق بتقدير أوسع وأشمل بحيث يستطيع أن يمس
 كثرة الناس وأن يبلغ من الانسان « أيسر مشاعره وأكثرها إلهاً » ، وأن الكتاب
 إذا حس أسلوبه ، وهذا هو الشرط الأساسى لكل أدب مثقف ، فليس ما يمنعه
 بعد ذلك من أن يكون شديد الملاءمة للخلق ، معيناً على إصلاح القيم .
 وعلى الجملة « لا بد من التعليم فى الآداب وفى الحياة كما فى العمارة ،
 ولا سبيل إلى إيجاد الأسلوب إلا من طريق البناء والتأليف » . ونحن نعرف هنا
 هذه المقتضيات التى تفرضها اللحظات السعيدة حين يعمل العقل فى مادة مصهورة
 مبرنة ، فينشئ منها آثاراً نادرة يقيّمها التوازن فى مكان مقسوم بين الصور الهندسية
 للجافة والانتاج الطبيعى المختلط ، وهى لحظات الانتاج الكلاسيكى .